

الجمال والشرع الحنيف



موسى فيربر

سلسلة رسائل طابة
رقم ٤، ٢٠١٧

أبحاث طابطة
TABAH RESEARCH





الجمال والشرع الحنيف

الجمال والشرع الحنيف



موسى فيرير

أبحاث طابطة
TABAH RESEARCH

سلسلة رسائل طبابة / رقم ٤ / ٢٠١٧
ISSN: ٢٠٧٧-٨٥٨٩

الجمال والشرع الخنيف
ISBN: ٩٧٨-٩٩٤٨-٤٩٥-٩٠-١

© ٢٠١٧، موسى فيربر
ترجمة: محمّد سامر الست
مؤسسة طبابة
ص.ب. ١٠٧٤٤٢
أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة
www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق محفوظة. يمنع إعادة إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من المؤلف، إلا في حالات الاقتباس المختصر مع الاستشهاد الدقيق والكامل في المقالات النقدية أو المراجعات.

هذه الوثيقة ترجمة لنصّ كُتِب في الأصل باللغة الإنكليزية، وإذا ما أُثِر أي تساؤل حول قصد المؤلف من عبارة ما، فربما يرغب القارئ في الاطلاع على النسخة الأصلية الإنكليزية.

صورة الغلاف: النسبة الذهبية في عباد الشمس © حقوق بورتوغاس د. أيس

ملخص

«إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ». بهذه الكلمات التي هي من جوامع الكلم يذكرُ نبينا محمدٌ ﷺ الإنسانَ بتلازم العلاقة بين ذات الله والجمال، منبِّهاً أنَّه منه تعالى تفيض الخيرات الكثيرة فيحبُّ من يختصُّ بذلك، إذ كلُّ جميل محبوب عنده سبحانه. وكفي يصبونَ الله عزَّ وجلَّ كلَّ ما هو جميل ويزيدُ من جماله أنزلَ شريعته الغراء، وذلك أنَّ الالتزام بها أساس الفعل الحسن. ثمَّ إنَّ أيَّ سعيٍ لتغييرِ شرع الله أو تطبيق بعضه دون بعض لا يمكن إلا أن يشوِّه التناسب والاتساق والاعتدال المنبثق من رؤيته كلِّه بلا اجتزاء، وهذا التشويه يفضي إلى قبح بدلاً من الجمال. ويعين فهم الجمال وأنَّ الشريعة بذاتها جميلة على تفسير السبب الذي يجعل مساعي «الإحياء» و«الإصلاح» المعاصرة تؤدِّي في الغالب إلى ذلك القبح. هذا وإنَّ إدراكَ جمالِ الشريعة يحيل الالتزامَ بها إلى أعمال تنبع من المحبة والعبودية.

نبذة عن المؤلّف

موسى فيربر زميل باحث أول في مؤسسة طبابة، درس العلوم الشرعية في دمشق حيث حصل على إجازة في تدريس الفقه الشافعي. ثم درس في دار الإفتاء المصرية في القاهرة حيث أجازته مفتي مصر الشيخ علي جمعة بالإفتاء. وهو يحمل شهادة البكالوريوس في اللسانيات التطبيقية من جامعة بورتلاند الحكومية بأوريغون في الولايات المتحدة، والماجستير في الإدارة العامة من كلية دبي للإدارة الحكومية. وقد سبق أن نشر له قسم الأبحاث في مؤسسة طبابة: الأبعاد الأخلاقية للتكنولوجيا النانومترية، والأخلاقيات والعالم الافتراضية، وحلّ بديل للنزاعات، والتقليل من دور التحيزات في الفتوى، وعناصر الفتوى ومساهمتها في الثقة بصحتها، وواجبات المسلمين تجاه الأجيال القادمة، والحقوق والواجبات المتعلقة بالحيوان المملوك، وفهم عامة الناس للعلوم الشرعية في المجتمع: معالجة إدمان اختلاق الفتاوى الباطلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الجمال سمة الشريعة الإسلامية وسمة مصادر تشريعها الأساسية، وكذلك هو سمة كل حكم منفرد من أحكامها. والالتزام بالشرع الحنيف أساس الفعل الحسن. ولأن الشريعة موصوفة بالجمال فهذا يعين على تفسير السبب الذي يجعل التطبيق الجزئي لها مفضيًّا إلى قبح. وبإدراك هذا الجمال تتغير بواعث الالتزام بالشريعة الغراء.

تبدأ هذه الرسالة^(١) بتعريف موجز لشريعة الإسلام ثم تستعرض مفاهيم الجمال الأساسية في الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، ثم تعرض بجمال المصادر الأساسية للشريعة الإسلامية. بعد ذلك تبين أن هذه الشريعة برمتها ذات جمال يساهم فيه كل حكم من أحكامها. وتُختَم الرسالة بنقاش حول بعض ثمار معرفة هذا الجمال وإدراكه؛ إذ يفيد فهم معنى الجمال وأنه من سمات الشريعة في تفسير القبح الذي تؤدِّي إليه في الغالب المساعي الإحيائية أو الإصلاحية المعاصرة. على أن إدراك جمال الشريعة يحيل الالتزام بها إلى أعمال نابعة من المحبة والعبودية.

١ أصل هذه الرسالة سلسلة محاضرات أُلقيت عام ٢٠١٥ في زاوية روزالس في إسبانيا.

وقبل النظر في مفاهيم الجمال الأساسية من الأهمية أن نفهم المقصود بالشرعية.

الشرعية الإسلامية

كلمة «شريعة» مشتقة من الشين والراء والعين، وفعل شَرَعَ يعني بيّن ووضّح، وتأتي الكلمات المتعلقة بهذا الفعل في الغالب متضمّنة مفهوم بيان شيء من شيء آخر.

وفعل شَرَعَ واشتقاقاته الصرفية في الاصطلاح الشرعي له معنى خاصّ، فهو يعني بيان شيء بأنّه جائز أو حرام، أو بيان شيء بأنّه مباح أو غير مباح. والشارع هو مبين الأحكام الشرعية والطريقة في الدين. والشارع الحقيقي هو الله تعالى الذي يُعرف شرعه بالوحي؛ ويوصف النبي ﷺ أحياناً بالشارع لأنّ أوامر الله تعالى، الشارع الحقيقي، أُوحي بها إليه ﷺ فبينها وفسرها وتمثّل بها. وحين يبيّن حكم شيء بأنّه مباح فهو مشروع.

والشريعة هي ما بيّن الله تعالى من حلال أو حرام، وتشمل نطاقاً كاملاً من الأفعال ولا تنحصر في أمور العبادات أو ما تشتمل عليه عادةً كتب الفقه. وهذا بخلاف الدين الذي هو ما ورد به الشرع من التعبّد ويطلق على الطاعة والعبادة والجزاء والحساب.

في هذه الرسالة تشير الشريعة إلى كلّ ما بيّنه الله تعالى من حلال أو حرام؛ وقد جاء هذا البيان في نصوص مصادر التشريع الأساسية في الإسلام: القرآن الكريم والسنة النبوية، إذ هما المادة الأولية للمعايير الفقهية والأخلاقية. ولسوف نعود لاحقاً إلى مصادر الشريعة وأنها أساسٌ للأعمال.

مفاهيم الجمال في العالم القديم وفي الغرب

تعرف القواميس المعاصرة في الغالب الجمال أنه سمة لإنسان أو حيوان أو مكان أو فكرة أو شيء، تمنح إدراكًا حسيًا لتجربة لذة أو رضا. ويعدُّ الجمال منذ القدم من بين أعظم القيم إلى جانب الخير والحق والعدل.

ويمكن العثور على أقدم المفاهيم الغربية عن الجمال في مؤلفات الفلاسفة الإغريق القدامى من عهد ما قبل سقراط. وإنَّ أفضل اسم يوناني قديم يعبر عن معنى «جمال» أو «جميل» هو «καλός» (كالوس)؛ ويمكن ترجمة هذه الكلمة إلى «خير» أو «حسن»، فلها معنى أوسع من معنى الجمال المادّي فقط.

وقبل عصر التنوير، كان الكلام الفلسفي السائد على الجمال يشير إلى صفة موضوعية للشيء الجميل نفسه أو لإحدى صفات هذا الشيء. فكان الجمال أمرًا يتعلّق بترتيب أجزاء تكاملية في كلِّ متناسق متناسب واعتدال واستواء. وهذا الجمال يمكن أن يفضي إلى الشعور باللذة التي هي من تأثيره، وهذا التأثير نفسه قد يكون ذاتيًا (شيئًا في عين الناظر)، مع أنّ الجمال ذاته كان موضوعيًا (شيئًا خارجيًا ومستقلًا عن عين الناظر). وقد كان الجمال يُعدّ في الغالب شيئًا يجسّد النعمة الإلهية، ولم يكن مقتصرًا على الأمور المادية بل يمكن تصنيف السلوك بأنّه جميل قد انبثق من حالة أخلاقية داخلية متوجّهة إلى الخير.

وخلال عصر التنوير لم يعد يُنظر إلى اللذة المترافقة مع الجمال أنّها من تأثير الجمال إنّما الأصل ذاته للجمال. فتجربة اللذة للناظر كانت هي الجمال بعينه، جمالٌ يعدّ شيئًا داخل عين الناظر ينقله من شيء منظور إلى كونه حالة داخل الذات الناظرة. ولم يعد الجمال علّة خارجية عن أنفسنا لتجربة نمرّ بها، بل هو التجربة نفسها. وهكذا اختزل الجمال في كونه حالة ذهنية ذاتية.

وقد أشار بعض فلاسفة عصر التنوير إلى أنّ الجمال ليس ذاتياً برمته ولا موضوعياً. فإذا كان الجمال لذّة ذاتية فلا تختلف منزلته عن شيء يؤدي ترفيهاً أو تسلية أو تلهية ليس إلا. فكيف يمكن إذن عدّ الجمال في الأهمية مساوياً للخير أو الحقّ أو العدل؟ ونحن نختلف في بعض أحكامنا الجمالية، فلا يُعقل أن نقول إنّ الجمال موضوعي محض وأنّ الأحكام الجمالية حقائق كليّة. مع أنّنا متفقون على كثير من أحكامنا الجمالية إلى حدّ كبير لافت للنظر، ومتفقون أيضاً على أنّ بعض الأحكام أفضل من غيرها، فلذلك لا يعقل أيضاً أن نقول إنّ الجمال ذاتي محض. وفي نهاية الأمر لا يُعقل فيما يبدو أن نقول إنّ الجمال لا علاقة له بالاستجابة الذاتية أو أنّه موضوعي تماماً.

فكانت هذه من بين بعض الأسباب التي جعلت الجمال أحد المواضيع الأكثر ديمومة وإثارة للجدل في الفلسفة الغربية^(٢). وكما سنرى الآن، توجد نظائر كثيرة بين مفاهيم الجمال الغربية قبل عصر التنوير ومفاهيم الجمال الإسلامية.

مفاهيم الجمال العربية والإسلامية

الكلمات العربية الدالّة على الجمال هي في جوهر مفاهيم الجمال الإسلامية، ولذلك فأوّل خطوة في فهم الجمال في الإسلام معرفة هذه الكلمات وتعريفاتها. أمّا الخطوة الثانية فهي النظر في طريقة بحث علماء المسلمين في الجمال. وهذا ما سيُتناول هنا مع نماذج من كتب لابن فارس، والراغب الأصفهاني، والإمام الغزالي، وابن قيم الجوزية.

٢ كرسين ستارتول، «Beauty» (الجمال) في *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (موسوعة ستانفورد الفلسفية) (طبعة ربيع ٢٠١٤)، تحرير: إدوارد ن. زالتا، <http://plato.stanford.edu/archives/spr2014/entries/beauty/>

فمعنى الجمال في اللغة العربية، في مقابل الكلمة اليونانية κάλλος والإنكليزية «beauty»، يعبر عنه بكلمات عديدة أشهرها مشتق مما أصله الجيم والميم واللام، وما أصله الحاء والسين والنون، ومنها: «جمال» و«جميل» و«حُسن» و«إحسان». وتوجد كلمات أخرى مثل «طيب»، بيد أن هذه الرسالة تركّز على تلك الكلمات لأولويتها. وغالبًا ما يُشار إلى ضدّ الجمال بكلمات مشتقة مما أصله القاف والباء والحاء، مثل «قُبْح» و«قبيح».

ابن فارس

المعاني اللغوية الأساسية لهذه الكلمات موثقة في «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس الذي كان إمامًا في اللغة، وتوفي سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م. وما يميّز معجمه هذا هو أنه يعطي أصل المعاني التي تشترك مع كلمات مشتقة من جذر واحد. فيذكر ابن فارس أن «الجيم والميم واللام أصلان، أحدهما تجمّع وعظّم الخلق، ومنه بَجَلٌ وجملة، والآخر حُسْنٌ، ومنه بجمال وجميل، وهو ضدّ القبيح»^(٣). «والحاء والسين والنون أصل واحد، فالحُسْنُ ضدّ القبيح، ومنه حَسَنٌ»^(٤). وذكر أن القاف والباء والحاء كلمة واحدة تدلّ على خلاف الحُسْن، وهو القبيح، ومنه قبيح^(٥).

الراغب الأصفهاني

وتوجد أيضًا معاجم خاصة بلغة القرآن، ومن أشهرها «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، وهو عالم مشهور له مؤلّفات في اللغة والأدب

٣ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩/١٩٧٩)، ١/٤٨١.

٤ المصدر السابق، ٢/٥٧.

٥ المصدر السابق، ٥/٤٧.

والبلاغة والتفسير والأخلاق، توفي سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م. وقد أدرج في معجمه القرآني ما ورد ذكره في القرآن من مفردات وعدد معانيها المختلفة مستشهداً لكل معنى بأمثلة من القرآن. وقد ألّف الراغب الأصفهاني أيضاً «الذريعة إلى مكارم الشريعة» وضع فيه فلسفة جامعة للإسلام، لا سيما فلسفته الأخلاقية والسياسية. في كتابه «المفردات» عرّف الجمال أنّه «الحُسْنُ الكثير، وذلك ضربان: أحدهما، جمال يختصّ الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله؛ والثاني، ما يوصل منه إلى غيره، وعلى هذا الوجه ما روي عنه عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال» تنبيهاً أنّه منه تفيض الخيرات الكثيرة فيحبّ من يختصّ بذلك»^(١). ثم ذكر مثلاً من القرآن في وصف ما خلق الله من نعمة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾^{(٧)،(٨)}.

وفي موضع آخر من معجمه كتب الأصفهاني عن الحُسْنِ بأنّه «عبارة عن كلّ مُبْهَج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مُسْتَحْسَنٌ من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسّ»^(٩).

وكلمة «إحسان» هي واحدة من كلمات كثيرة مشتقة من الأصل نفسه. وهي عادةً ما تترجم إلى الإنكليزية بمعنى يدلّ على عمل الخير (beneficence) أو على الإجابة والإتقان (excellence). بيد أنّها تدلّ أيضاً على إنتاج الجمال. وقال الأصفهاني: «فالإحسان فوق العدل، وذلك أنّ العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي ما عليه ويأخذ أقلّ مما له، فالإحسان زائدٌ

٦ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (دمشق: دار القلم، ١٤١٢/١٩٩١)، ٢٠٢.

٧ سورة النحل: ٦.

٨ الأصفهاني، المفردات، ٢٠٢.

٩ المصدر السابق، ٢٣٥.

عن العدل، فتحزّي العدل واجب وتحزّي الإحسان ندبٌ وتطوعٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾^(١٠)، ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^{(١١)،(١٢)}.

وقال في معجمه أيضًا عن القبح: «القبيح ما ينبو عنه البصر من الأعيان وما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال»^(١٣).

الإمام الغزالي

الإمام الغزالي علامة واسع المعرفة شافعي شهير توفي سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م. وقد كتب في «إحياء علوم الدين» في كتاب آداب السماع والوجد:

واعلم أنّ كلّ جمالٍ محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال. ولكنَّ الجمالَ إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر، وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب. ولفظ الجمال قد يستعار أيضًا لها فيقال إن فلانًا حسنٌ وجميلٌ؛ ولا تراد صورته وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة، حتى قد يُحبُّ

١٠ النساء: ١٢٥.

١١ العنكبوت: ٦٩.

١٢ الأصفهاني، المفردات، ٢٣٥.

١٣ المصدر السابق، ٦٥١.

الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانًا لها، كما تُحَبُّ الصورة
الظاهرة؛ وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقًا^(١٤).

وقد أشار الإمام الغزالي في كتاب آداب السماع والوجد نفسه إلى أننا نحُبُّ
طبعًا الأنبياء، عليهم السلام، والصحابة وغيرهم ممن عنده جمال باطن، وأَنَّهُ من
العجب أن يُعَقَّلَ عشق شخص لم نشاهد قط صورته، وهو ميّت، ولكن لجمال
صورته الباطنة وسيرته المرصية والخيرات الحاصلة من عمله وغير ذلك من
الخصال^(١٥).

ابن القيم

ابن قيم الجوزية، العالم الشهير من علماء الحنابلة وتلميذ ابن تيمية (توفي سنة
٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، كان غزير التأليف، كتب تقريبًا في كل فن، وكان موضوع
كتابه «روضة المحبين» محبة الله تعالى. وأحد أبواب الكتاب عنوانه: «في ذكر
فضيلة الجمال وميل النفوس إليه على كل حال». وسألخص هنا بعضًا من النقاط
المتعلقة بالموضوع.

بدأ ابن القيم الباب بتقسيم الجمال قسمين: ظاهر وباطن. وذكر أن القسم
الأول الجمال الباطن وهو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة
والشجاعة، وأن هذا الجمال الباطن هو محل نظر الله تعالى من عبده وموضع محبته،
كما في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر
إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١٦). والقسم الثاني الجمال الظاهر وهو زينة خص الله بها

١٤ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ)، ٢/ ٢٨٠.

١٥ المصدر السابق.

١٦ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث، بلا تاريخ)، ٤/ ١٩٨٦.

٢٥٦٤.

بعض الصّور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾^(١٧). ويكون الجمال الظاهر في الناس، على سبيل المثال، في الصورة الحسنة والصوت الحسن.

والجمال الباطن يزيّن الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب جماله الباطن. فنحن نرى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان مظهره عادياً أو دميماً. وكذلك القبح الباطن يستر الجمال الظاهر حين يتجلّى القبح الباطن بالأخلاق السيئة فتجعلنا نرى صاحبها قبيحاً وإن كان مظهره جميلاً. والجمال الباطن أفضل من الظاهر، ومما يدلُّ على ذلك أنّ القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

ثم ذكر ابن القيم أنّه كما أنّ الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده يوجب شكراً، فإن شكره بتقواه وصيانيته ازداد جمالاً على جماله؛ وإن استعمل جماله في المعاصي ولم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه به بين الناس. وزيادة الجمال أو نقصه لا يحتاج إلى تغيير الظاهر، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، كما أنّ قبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

ويمكن جعل الجمال الظاهر وسيلة لتحسين جمال الباطن. فقد كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر، فإن جرير بن عبد الله، وكان عمر بن الخطاب يسميه يوسف هذه الأمة، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أنت امرؤٌ قد حسن الله خُلقك فأحسن خُلقك»^(١٨). وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد

١٧ فاطر: ١.

١٨ أبو بكر الخراطي، المتقى من كتاب مكارم الأخلاق (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦/١٩٨٥)،

٥، ٧.

أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأى صورته حسنة لم يشنّها بقبیح فعله، وإن رآها قبيحةً لم يجمع بين قبیح الصورة وقبیح الفعل^(١٩).

ثم أورد ابن القيم فصلاً في ذكر حقيقة الحسن والجمال، فقال إن هذا أمر لا يُدرَك إلا بالوصف، فبذلك أخرج إمكانية تعريفه بالذات. ثم ذكر عدة احتمالات في حقيقته من بعض ما قيل فيه.

فلاحتمال الأول أن الحُسنَ تناسُبُ الخلقة واعتدالها واستواؤها، ثم نبّه بقوله: «وربّ صورة متناسبة الخلقة، وليست في الحسن هناك».

والاحتمال الثاني أن الحُسنَ في الوجه والملاحه في العينين.

والاحتمال الثالث أمرٌ مركّبٌ من وضاعة وصباحة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في البشرة.

والاحتمال الرابع أن الحُسنَ معنى لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنّما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها، وأن رسول الله ﷺ كان في الذروة العليا منه^(٢٠).

ما فتئت مؤلفات العلوم العربية والإسلامية تستخدم كلمات مشتقة من الأصيلين (الحاء والسين والنون) و(الجيم والميم واللام)، فتارة يُستعمل «الحُسن» وتارة أخرى «الجمال» لوصف الصور والصفات والأفعال المرصّية والحسنة. فلكلّ من الحُسن والجمال معانٍ تدلّ على شيء عرف بالتجربة أنّه مُرضٍ وطيب، وأنّ هذه المعاني هي ضدّ القبح الذي يدلّ على ما عُرف بالتجربة أنّه سيئ ومنقّر. وهكذا فإنّ بين الحُسن والجمال ترابطاً لغويّاً.

١٩ ابن قيم الجوزية، روضة المحبّين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣)، ٢٢١-٢٢٣.

٢٠ المصدر السابق، ٢٣٢.

وقد تكون جميع الأفعال أو الأعيان أو الأفكار إما جميلة وإما قبيحة، وقد يحصل إدراك هذه الصفة بملكات مختلفة؛ وهذا الجمال يوجد فيما يُدرك من الأشياء، فليس محلّه فعل الإدراك ولا صاحب الإدراك.

وتؤكد نصوص إسلامية كثيرة أنّ الجمال متعلّق بترتيب أجزاء تكاملية في كلّ متناسق متناسب واعتدال واستواء.

والجمال بوصفه نسقاً، والارتباط بين الجمال والخير، كلاهما، موضوع مشترك في وضع مفهوم للجمال في الحضارتين الإسلامية والغربية.

والآن آن أو أن النظر عن قرب في جمال مشرّعَي الشريعة الغراء.

جمال المشرّعين

الله تعالى ورسوله ﷺ هما مصدرا المعرفة الإسلامية وعلومها التي منها الشريعة. والله جلّ في علاه جميل ورسوله ﷺ جميل. فالله تعالى هو الجمال المطلق وله الأسماء الحسنى. والنبي ﷺ أفضل خلق الله الموصوفُ بأنّه الأجلّ في صورته وخلقته وأفعاله. وكان خلقه وسيرته وأفعاله ﷺ تجلياً حياً للقرآن الكريم. وقد دُوّنت في السنّة المطهّرة أوصاف خلقه وخلقته.

إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال

لله الأسماء الحسنى وهو سبحانه الجمال المطلق. يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢١)، ويقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٢٢)، ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ

٢١ الأعراف: ١٨٠.

٢٢ الإسراء: ١١٠.

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»^(٢٣)، ويقول تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢٤). والأسماء الحسنى التي جاء ذكرها في هذه الآيات الأربع معلوم أنّها الأسماء التسعة والتسعون التي أشير إليها في حديث صحيح رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وروتها أحاديث أخرى، وشرحت في مؤلفات عديدة^(٢٥).

توصف أسماء الله بأنّها «أحسن الأسماء لأنّها تدلّ على أحسن معاني إجلال الله وتمجيده وغير ذلك من معاني تعظيمه تعالى»؛ فهذه الأسماء الحسنى يتجلّى فيها التعظيم، ويفوز من يحصيها بالجنة بحسب الوعد الإلهي، وتميل القلوب إليها بكرم ورحمة من الله تعالى، ونتعلّم منها مظاهر وصفه تعالى الواجبة له أو الجائزة أو المستحيلة في حقّه، وهي أشرف أنواع المعرفة المتصورة إذ المرجع فيها هو الله جلّ جلاله^(٢٦).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة» (حديث متفق عليه)^(٢٧).

وهذه الأسماء المحصاة التي يعرفها معظمنا جاءت في رواية للترمذي، وليس اسم «الجميل» من ضمنها^(٢٨). ولكن ابن ماجه أخرج رواية أخرى فيها «الجميل»

٢٣ طه: ٨.

٢٤ الحشر: ٢٤.

٢٥ جبريل فؤاد حدّاد، «Beautiful Names of Allah» (أسماء الله الحسنى)، في: *Integrated Encyclopedia of the Quran* (موسوعة القرآن الموحدة)، تحرير: مظفر إقبال (شيرود بارك، ألبرت): مركز العلوم الإسلامية، ٢٠١٣، ٣٥٧-٣٥٨.

٢٦ المصدر السابق، ٣٥٨.

٢٧ محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢/٢٠٠١)، ٣/١٩٨. ٢٧٣٦. ١١٨/٩. ٧٣٩٢؛ مسلم، صحيح مسلم، ٤/٢٠٦٣. ٢٦٧٧.

٢٨ محمد بن عيسى الترمذي، السنن (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥/١٩٧٥)، ٥/٥٣٠. ٣٥٠٧.

أحد أسماؤه تعالى^(٢٩). ثم إنَّ الإمامَ مسلمَ روى حديثًا صحيحًا، يصف الله تعالى باسم «الجميل»، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال»^(٣٠).

على أنَّ بعض العلماء يدرجون اسم «الجميل» ضمن أسماء الله الحسنی^(٣١). وقد أفردت مؤلِّفات كثيرة خاصَّة بشرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين وكيف يمكن أن يتخلَّق بها العباد. وربما يكون كتاب «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی» للإمام الغزالي أشهرها، وقد تُرجم إلى عدة لغات. وبيَّن الإمام الغزالي أنَّ «كمال العبد وسعادته في التخلُّق بأخلاق الله تعالى والتحلِّي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصوَّر في حقِّه»^(٣٢). فعلى العبد معرفة هذه الأسماء ثمَّ التفكَّر فيها ثمَّ التحلِّي بها ثمَّ التخلُّق بأخلاقها.

بيَّن الإمام الغزالي أنَّ الله تعالى هو الجليل الموصوف بنعوت الجلال، ونعوت الجلال هي العزِّ والملك والتقدُّس والعلم والغنى والقدرة. وصفات الجلال إذا نُسبت إلى البصيرة المدركة لها سمَّيت جمالًا، وسمِّي المتصف به جميلًا. والجميل الحقُّ المطلق هو الله سبحانه وتعالى فقط، لأنَّ كلَّ ما في العالم من جمال وكمال وبهاء وحُسن فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته^(٣٣).

٢٩ أبو عبد الله ابن ماجه، السنن (حلب: دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ)، ٢/١٢٦٩. ٣٨٦١.

٣٠ مسلم، صحيح مسلم، ١/٩٣. ١٤٧.

٣١ أبو القاسم القشيري، التَّحْيِيرُ فِي التَّذْكِيرِ (دمشق: مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٤/٢٠٠٣)، ٧١.

٣٢ الإمام الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی (قبرص: الجفان والجابي، ١٤٠٧/١٩٨٧)، ١١٥.

٣٣ المصدر السابق، ١١٥-١١٦.

فالله تعالى جميل وله الأسماء الحسنى، وهذا الجمال متجلّ في العالم من حولنا، ومن أعظم تجلياته القرآن، بجمال معناه ومبناه، وهو ما نُدبنا إلى تلاوته تلاوة جميلة. والقرآن كلام الله الذي هو أول مصادر التشريع الأساسية.

جمال رسول الله ﷺ

النبي ﷺ أفضل خلق الله تعالى، وصفاته الخلقية والخلقية توصف بأنها الأجل والأحسن، وأخلاقه الجميلة وأفعاله الحسنة صيغت بجمال القرآن وهو ما دونته السنة المطهرة الجميلة.

ومن أحسن وأشمل ما كُتب في التعريف بالنبي ﷺ كتاب «الشفاء» للقاضي عياض (توفي ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، وقد جاء فيه الآتي:

فاعلم، نورَ الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبيّ الكريم حُبِّي وحُبِّكَ، أنّك إذا نظرتَ إلى خصال الكمال، التي هي غير مكتسبة، وفي جبلة الخلق، وجدته ﷺ حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات محاسنها، دون خلافٍ بين نقلِ الأخبار.

أما الصورةُ وجمالها، وتناسُبُ أعضائه في حُسْنِها، فقد جاءت الآثارُ الصّحيحةُ، والمشهورةُ الكثيرةُ بذلك... من أنّه ﷺ كان أزهرَ اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدبَ الأشفار، أبلج، أزج، أقبى، أفلج، مدوّرَ الوجه، واسعَ الجبين، كَثَّ اللحية تملأ صدره، سواءً البطنَ والصدر، واسعَ الصدر، عظيمَ المنكبين، ضخَمَ العظام، عبلَ العضدين والذراعين والأسافل، رحبَ الكفينَ والقدمين، سائلَ الأطراف، أنورَ المُتجرّد، دقيقَ المُسرّبة، ربّعةَ القدِّ، ليس بالطويل البائن ولا القصيرِ المُتردّد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحدٌ يُنسبُ إلى

الطول إلا طاوَّله ﷺ، رَجَلَ الشعر، إذا افترَّ ضاحكًا افترَّ عن
 مثل سنا البرق وعن مثل حَبِّ الغمام، وإذا تكلمَ رُئي كالنور
 يخرجُ من ثنياه، أحسنَ الناسَ عُنقًا، ليس بمُطَهَّمٍ ولا بمُكثَّمٍ،
 متماسكُ البدن، صَرَبَ اللحم (٣٤).

ومما يلاحظ في هذا الوصف البديع أنَّ التناسق والتناسب والاعتدال
 والاستواء كلُّها من مزايا جمال النبي ﷺ البدني الخَلْقِي.
 وأما خُلُقُه ﷺ فكان من أهمِّ سمات جماله، وكان خُلُقُه القرآن. وقد ذكر
 الإمام الغزالي في «مختصر إحياء علوم الدين» لمحةً عن هذا الخُلُق العظيم:

قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها
 عن أخلاق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن، قلت: بلى،
 قالت: خُلِقَ رسول الله ﷺ القرآن، وإنَّما أدبه بالقرآن بمثل
 قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
 (الأعراف: ١٩٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
 وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠)، وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، إلى آيات كثيرة. [...]
 واعلم أنَّ مثل هذه الآيات في القرآن كثيرة، وهو المقصود
 الأوَّل بالتأديب والتهديب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق.
 قال ﷺ: «إنَّها بُعِثَتْ لِأَتَمِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ». [...]

٣٤ القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (عمان: دار الفحاء، ١٤٠٧/١٩٨٦)،
 ١٤٥-١٥١.

كان ﷺ أفصح الناس منطقيًا وأحلامهم كلامًا ويقول أنا أفصح العرب، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة النبي ﷺ. وكان يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير؛ كأن كلامه يتبع بعضه بعضًا، وبين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه^(٣٥).

يأمرنا الله تعالى بأن نتبع نبيه ﷺ ونقتدي به، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٣٦)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٣٧). وإن أقوال النبي ﷺ وأفعاله وشأله مدونة في السنة المطهرة؛ وإن سنته ﷺ هي المصدر الأساسي الثاني للتشريع.

وإن الله جميل يحبُّ الجمال، وإننا نعرف هذا الجمال ونخبره حين نعلم النظر في العالم المخلوق ونتفكر فيما أودع الله تعالى فيه من الآيات^(٣٨). ونعرف هذا الجمال أيضًا حين نتفاعل مع القرآن الكريم تلاوةً وفهمًا وتدبرًا وتطبيقًا. والله الأسماء الحسنی، وبها أن من أسمائه ما يناسب أن يكون وصفًا للبشر، فإن

٣٥ الإمام الغزالي، مختصر إحياء علوم الدين (دمشق: مكتبة دار البيروتي، ١٩٩٩/١٤٢٠)، ١٧٧-١٩٤.

٣٦ النساء: ٥٩.

٣٧ النساء: ٨٠.

٣٨ انظر: جهاد هاشم براون، الأبعاد الميتافيزيقية للوعي الإسلامي البيئي، سلسلة رسائل طباعة رقم ٣ (أبو ظبي: مؤسسة طباعة، ٢٠١٣).

الاتِّصاف والتخلُّق بها يميِّز لنا أن نصبح تجلِّيات لجمالهِ ولأسائه الحسنى، وإن كنَّا تجلِّيات محدودة وقاصرة. وأكمل مثال لهذا متجلِّ في خاتم رسله سيِّدنا محمد ﷺ. فالله تعالى ورسوله ﷺ هما مُسرِّعا الشريعة، والقرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة وهما جميلان، وكذلك الشريعة نفسها جميلة، وجمالها في كلِّها على الجملة وفي كلِّ حكم من أحكامها.

جمال الشريعة

إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال؛ وفعله تعالى جميل وحسن، والشريعة هي ما بيَّن الله تعالى من حلال وحرام، وهذا البيان هو من فعله سبحانه، فإذاً الشريعة كلُّها جميلة. الشريعة بالكليَّة جميلة، وكذلك ما حوته من أوامر ونواهي كلُّ منها جميل. والله ﷻ كتب الإحسان على كلِّ شيء، وهو تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣٩). وعادةً ما تُشرح كلمة إحسان بأنَّها تعني صنع «المعروف»، مع أنَّها أيضًا تعني لغةً صنع الجمال.

والفعل «يأمر» المذكور في الآية هو فعل مضارع يفيد أنَّ الأمر والنهي مستمرَّان متجدِّدان، فالله تعالى يأمر بالحُسن والإحسان دائمًا أبدًا، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي (القبح والقيح) دائمًا أبدًا. ولأنَّهما مستمرَّان فهما أيضًا منسجمان مع جميع الأوامر والنواهي الأخرى؛ فالأمر بالجمال مضمَّن في كلِّ أوامر الشرع.

ويتأكد وجوب هذا الأمر في آية أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤٠). وفي هذه الآية حثٌّ على فعل الحَسَنِ والجميل، وذلك أَنَّ النَّاسَ على الأَرْجَحِ تَجْتَهِدُ وتتنافس في أيِّ أمرٍ ثمرته محبة الله.

وإنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، وقد أمرنا سبحانه بأداء الفعل الجميل والحَسَنِ، ونهانا عن الفعل القبيح والسيِّئ. وهذا الأمر أو النهي مستمرٌّ على الدوام، وكلُّ ما يأمرنا به سبحانه وتعالى حَسَنٌ أو سبب حُسْنٍ، وبسبب صلة الحَسَنِ بالجميل، فكلُّ شيء يأمرنا الله تعالى به جميل أو سبب لجمال؛ إذن فطاعة أوامر الله تعالى تؤدِّي إلى جمال، ومعصية أوامره تعالى تؤدِّي إلى ضدِّ الجمال وهو القبح.

وكذلك فإنَّ كلَّ شيء حرَّمه الله سيِّئٌ أو سبب لسوء، وبسبب صلة السوء بالقبح، فإنَّ كلَّ ما حرَّمه الله قبيحٌ أو سبب لقبح؛ إذن فمعصية الله فيها نهانا عنه تؤدِّي إلى قبح، وطاعة الله فيها نهانا عنه تؤدِّي إلى ضدِّ القبح وهو الجمال.

على أنَّه توجد فائدتان مباشرتان من إدراك أنَّ الشريعة جميلة. الفائدة الأولى أنه يعين على فهم السبب الذي يجعل إحداث تغيير في الشريعة أو التركيز على أجزاء منها دون أخرى يؤدِّي إلى نقص في جمالها أو فقدان كامل له. والفائدة الثانية أنَّ إدراك جمال الشريعة يحيل تطبيقها إلى أعمال ناشئة عن المحبة والعبودية. تبين بعض تعريفات الجمال أنَّه ترتيب أجزاء متكاملة لكلِّ متناسق متناسب واعتدال واستواء؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ إحداث تغيير في هذا الترتيب بإضافة أو إزالة أو أي تغيير آخر سيبتج عنه إعادة ترتيب قد تنتهك أسباب الجمال من التناسب والاعتدال والاستواء. وكذلك الشريعة، فهي جميلة كلُّها وكذلك كلُّ حكم من أحكامها المتمايزة. فلو جرى تغيير حكم واحد من أحكامها فلربما يحيل جمالها إلى قبح، وذلك أنَّ الترتيب الجديد من شأنه أن يُنْقِص الاتساق

٤٠ البقرة: ١٩٥.

والتناسب والاعتدال المؤدّي إلى الجمال أو يقضي عليه. وهكذا، فإنّ تغيير الشريعة يفضي إلى نقص جمالها أو فقدانه بالكامل.

والشريعة كاملة كما هي، وقد صرّح القرآن بجمالها بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٤١). وأيّ تبديل أو تغيير في الشريعة، وأي اختيار أو ترتيب آخر للأحكام، سيكون ناقصًا. وسيأتي هذا النقص بفقْدان ما أدّى إلى جمالها من تناسب واتّساق واعتدال واستواء. ولتتصوّر وجهًا بعينين وأذنين وأنف وفم وملامح أخرى متناسبة ومعتدلة ومستوية ومتناسقة بما يجعله وجهًا جميلًا. ثم لتتصوّر أنّ إحدى العينين أكبر وأخفض والأخرى أصغر وأعلى ومثلثة الشكل، فالوجه، والحالة هذه، يفقد تناسبه واتّساقه واعتداله، بما يؤدّي إلى نقص جزئي أو كامل في الجمال. ثمّ لتتخيّل أنّ جميع ملامح الوجه اختلفت ما عدا الفم؛ فمن المحال أن نظلّ نزعّم أن هذا الجزء الوحيد المتبقي هو وجهه.

وهكذا يمكننا أن نتوقع حصول قبح (وجور) إذا اختزّلت الشريعة في الاهتمام بحقوق الزوج وواجبات الزوجة وإهمال واجبات الزوج وحقوق الزوجة؛ أو تطبيق الحدود دون أن يتأكّد استيفاء شروطها الضرورية وأنّ القاضي بذل ما في وسعه لدرء العقوبة؛ أو عبادات تؤدّي في المسجد أو البيت بينما تهمل الأحكام المتعلقة بالتجارة والأحوال الشخصية والأطعمة والعدالة. فالاهتمام بجوانب من الشريعة وإهمال جوانب أخرى يؤدّي إلى نقص أو فقدان كامل لجمالها وغايتها. ولئن أزيلت الشريعة جزءًا بعد جزء، سيؤول الأمر بعد ذلك إلى أن يصبح من المحال زعم أنّ ما تبقى منها هو الشريعة.

٤١ المائدة: ٣.

وإذا وُضع هذا في الاعتبار، فلا يُستغرب من أن تؤدّي محاولات «إصلاح»
الشريعة وإعادة تقديم أجزاء منها على نحو انتقائي إلى تشويهاً قبيحة لا تكاد
تشبه الشريعة في شيء إلا في الاسم.

على أن إدراك جمال الشريعة يحوّل الالتزام بها إلى أعمال ناشئة عن المحبة
والعبودية. وقد مرّ ونحن نستعرض ما أورده العلماء في مؤلفاتهم أن الشيء
الجميل تميل إليه القلوب وتحبّه. فحين نحبّ شيئاً نسعى للقرب منه وحمانيته
واستخدامه بطريقة وفيّة له ولغاياته؛ نتبعه ونتمسك به، ونتصرّف بأسلوب مُرضٍ
متوافق معه. ومحبّة شيء ما تحملنا على محبة مالكة ومؤسسه وسيّده؛ فإذا أحببنا
كائنًا حيًّا نسعى لقضاء وقت في صحبته وتقليل أوقات مفارقتنا له، ونجتهد في
إدخال السرور عليه وتفادي أيّ شيء يسيئه.

وكذلك ينبغي أن يؤدي إدراك الجمال في الشريعة إلى ميل القلوب إليها
ومحبّتها، والسعي لملازمتها والذود عنها واتباعها والتمسك بها على نحو مُرضٍ
يتوافق معها؛ وهذه المحبة للشريعة ينبغي أن تقود إلى محبة شارعها، الله تعالى.
وينبغي أن يحملنا حبّ الشارع الحكيم على أن نقضي الأوقات في صلته ونقلّ مما
يقطعنا عنه سبحانه، وأن نسعى جاهدين لإرضائه تعالى وتجنّب كلّ ما لا يرضيه.
والحبّ الصادق يجعل القلوب والألسن والجوارح تنقاد لإرضاء الشارع
الحكيم وطاعته؛ والبرهان على حبه سبحانه هو الاستمسك بشرعه الذي أوضح
فيه تعالى ما يرضيه وما لا يرضيه.

والأوامر والنواهي هي الوسائل الأساسية لتبيين ما يرضي الله تعالى وما لا
يرضيه. فما يأمر بأدائه يدلّ على أنّه يرضيه، وعادةً ما يُشار إليه باستخدام الصيغة
الفعلية «افعل». وكذلك فإنّ ما ينهى عنه يدلّ على أنّه لا يرضيه، ويُشار عادةً إليه
باستخدام صيغة «لا تفعل».

على أن الأسلوب البيّن للأمر والنهي ليس الأسلوب الوحيد الذي يدلّنا به
الله تعالى ورسوله ﷺ على ما يرضيه سبحانه وما لا يرضيه. فقد عدّد العزّ بن عبد

السلام في كتابه «الإمام في بيان أدلة الأحكام» ثلاثة وثلاثين مثلاً لأنواع أدلة الأمر في القرآن الكريم^(٤٢):

- ١) تعظيم الفعل وتوقيره^(٤٣).
- ٢-٣) مدح الفعل^(٤٤)، أو مدح الفاعل^(٤٥).
- ٤) الفرح بالفعل^(٤٦).
- ٥-٦) حبّ الفعل^(٤٧)، أو حبّ الفاعل^(٤٨).
- ٧-٩) الرضا بالفعل^(٤٩)، أو الرضا عن الفاعل^(٥٠)، أو رضا الفاعل عن ربّه^(٥١).

-
- ٤٢ كل من الأمثلة القرآنية ذكرت هنا في التعليقات ولم تأت في نص المقالة إذ لا ضرورة لذلك من جهة غرضها.
 - ٤٣ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).
 - ٤٤ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).
 - ٤٥ ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠ و ٤٤).
 - ٤٦ قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها»، سنن الترمذي، ٥/٥٤٧. ٣٨٣٨. (حسن صحيح غريب).
 - ٤٧ قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنك عفوٌ تحبُّ العفو»، سنن الترمذي، ٥/٥٣٤. ٣٥١٣. (حسن صحيح)؛ وسنن ابن ماجه، ٢/١٢٦٥. ٣٨٥٠.
 - ٤٨ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).
 - ٤٩ ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧).
 - ٥٠ ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩).
 - ٥١ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (القارعة: ٦-٧).

- ١٠-١٥) وصف الفعل بالاستقامة^(٥٢)، أو بالبركة^(٥٣)، أو بكونه قربة^(٥٤)، أو وصف
 الفاعل بالتقريب^(٥٥)، أو وصف الفعل بالطيب^(٥٦)، أو وصف الفاعل بالطيب^(٥٧).
 ١٦-١٧) القَسَمَ بالفاعل^(٥٨)، أو بالفعل^(٥٩).
 ١٨-٢٣) نصب الفعل سبباً لمحبة الله تعالى^(٦٠)، أو سبباً لثواب عاجل^(٦١)، أو
 سبباً لثواب آجل^(٦٢)، أو سبباً لذكر الله تعالى^(٦٣)، أو سبباً لشكر الله عز وجل^(٦٤)،
 أو سبباً للهداية^(٦٥).

- ٥٢ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (البينة: ٥).
- ٥٣ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١).
- ٥٤ قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً»، صحيح البخاري، ٩/١٢١. ٧٤٠٥.
- ٥٥ قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني»، صحيح البخاري، ٩/١٢١. ٧٤٠٥، ٧٥٠٥؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٠٦١. ٢٦٧٥، ٢٨٧٧.
- ٥٦ ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: ٢٤).
- ٥٧ ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠).
- ٥٨ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (العاديات: ١)، تنبيه على تعظيم المجاهدين وتوقيرهم.
- ٥٩ ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيْالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الفجر: ١-٣)، إن حمل على الصلوات.
- ٦٠ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).
- ٦١ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧-١٤٨).
- ٦٢ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧١).
- ٦٣ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢).
- ٦٤ ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).
- ٦٥ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

٢٤-٢٨) نصب الفعل سبباً لمغفرة الخطيئات وتكفير السيئات^(٦٦)، أو سبباً لإصلاح العمل^(٦٧)، أو سبباً لقبول العمل^(٦٨)، أو سبباً لمعونة الفاعل ونصرته^(٦٩)، أو سبباً للشارة^(٧٠).

٢٩-٣١) وصف الفعل بكونه معروفاً في الأصناف^(٧١)، أو نفي الحزن والخوف عن الفاعل^(٧٢)، أو الوعد بأمن الآخرة^(٧٣).

٣٢) دعاء الأنبياء بالفعل^(٧٤).

٣٣) نصب الفعل سبباً لولاية الله تعالى^(٧٥).

٦٦ ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١).

٦٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

٦٨ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

٦٩ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

٧٠ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٢٥).

٧١ ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

٧٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

٧٣ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾ (الحجر: ٤٥-٤٦).

٧٤ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

٧٥ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧).

ثم نبّه الإمام العزّ أن كلّ هذه الصيغ أو أدلّة الأمر عائدةٌ إلى مدح الفعل أو فاعله، أو الوعدِ بالثواب على أدائه^(٧٦).

ثم أبان عن قائمة من سبعة وأربعين مثالاً لأنواع أدلّة النهي في القرآن، وكذلك نبّه أنّها كلّها عائدةٌ إلى الذمّ أو الوعيد^(٧٧).

وإنّ الصادق في حبّ الله تعالى يسعى إلى كلّ ما يرضيه سبحانه ويتقي كلّ ما لا يرضيه. وتقتضي معرفة ما يرضي الله تعالى وما لا يرضيه النظر فيما وراء «افعل ولا تفعل» إذ هما ليسا سوى صيغتين من الصيغ الكثيرة التي استعملها الله تعالى في إيضاح ذلك؛ وهذه الإيضاحات هي التي كوّنت الشريعة.

وإنّ حبّ الله تعالى ومحبة الشريعة مترابطان، والله جميل وهو مشرّع الشريعة، والشريعة جميلة. وإدراك هذا الجمال يقود إلى الحبّ، والحبُّ محفّز للمحبّ على الامتثال لمراد محبوبه بصورة معيّنة.

فينبغي أن يؤدّي إدراك المرء لجمال الشريعة وجمال شارعها إلى تغيير عميق في نظرته وبعائه إزاء تطبيقه للشريعة. وهذا المأمول تؤكّده النصوص الإسلامية، فقد كتب مفسّر القرآن والفقهاء المالكي الشهير ابن جُزّي (توفي ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) عن محبة الله فقال: «واعلم أنّ محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجِدِّ في طاعته والنشاط لخدمته والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته والرضا بقضائه»^(٧٨). وأشار في موضع آخر إلى أنّ الشخص يكون كاذباً في دعوى محبة الله إن استمر في ارتكاب المعاصي، مجملاً هذا القول بذكر بيتين من الشعر:

٧٦ عزّ الدين بن عبد السلام السُّلَمي، الإمام في بيان أدلّة الأحكام (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٧/١٩٨٧)، ٨٧-١٠٣.

٧٧ المصدر السابق، ١٠٥-١٢٥.

٧٨ ابن جُزّي، التسهيل لعلوم التنزيل (بيروت: دار الأرقم، ١٤١٦/١٩٩٥)، ١: ١٠٥.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى في القياس بديع^(٧٩)

لو كان حُبُّك صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع^(٨٠)

هذا وإنَّ صاحب الحبِّ الصادق لا يقنع بالحدِّ الأدنى، إنَّما يسعى إلى الكمال. وصاحب الحبِّ الصادق لا يعصي محبوبه ولا يعطلُّ لزوم إرضائه وطاعته وهو يلتمس مسوغات عقلية لذلك، فمثل هذه المسوغات هي نتاجٌ لمحبة زائفة، ليست إلا تشدقاً وغروراً.

٧٩ في نسخة أخرى من هذه الأبيات «شنيع» بدلاً من «بديع».

قائمة المراجع

الأصفهاني، الراغب. المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي (دمشق: دار القلم، ١٤١٢/١٩٩١).

براون، جهاد هاشم. الأبعاد الميتافيزيقية للوعي البيئي الإسلامي، سلسلة مقالات طابة، رقم ٣ (أبوظبي: مؤسسة طابة، ٢٠١٣).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله. الجامع الصحيح المختصر، تحقيق محمد زهير الناصر (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢/٢٠٠١).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة، بلا تاريخ).

_____ . المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي (قبرص: الجفان والجابي، ١٤٠٧/١٩٨٧).

_____ . مختصر إحياء علوم الدين (دمشق: مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٠/١٩٩٩).

حدّاد جبريل فؤاد. Beautiful Names of Allah (أسماء الله الحسنى)، في *Integrated Encyclopedia of the Quran* (موسوعة القرآن الموحّدة)، ٧ مجلّدات، تحرير: مظفر إقبال (شيروود بارك، ألبرتا: مركز العلوم الإسلامية، ٢٠١٣).

ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩/١٩٧٩).

ابن جُزَي. التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق عبد الله الخالدي (بيروت: دار الأرقم، ١٤١٦/١٩٩٥).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (حلب: دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ).

ابن قيم الجوزية. روضة المحييين ونزهة المشتاقين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣).

الخراططي، أبو بكر محمد بن جعفر. المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق، تحقيق: محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦/١٩٨٥).

مسلم بن الحجاج. المسند الصحيح المختصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث، بلا تاريخ).

القاضي عياض. الشفا بتعريف حقوق المصطفى (عمّان: دار الفيحاء، ١٤٠٧/١٩٨٦).

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم. التحبير في التذكير شرح أسماء الله الحسنی، تحقيق: محمد أمين الفاروقي (دمشق: مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٤/٢٠٠٣).

ستارتول، كريسین. «Beauty» (الجمال) في *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (موسوعة ستانفورد الفلسفية) (طبعة ربيع ٢٠١٤)، تحرير: إدوارد ن. زالتا. <http://plato.stanford.edu/archives/spr2014/entries/beauty/>

السُّلَمي، عزّ الدين بن عبد السلام. الإمام في بيان أدلّة الأحكام (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٧/١٩٨٧).

الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى. السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرون، الطبعة الثانية (القاهرة: مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥/١٩٧٥).

